# لوتي والطنجي
## ممكنات وحدود القراءة الطباقية

**د. وحيد بن بوعزيز**

**جامعة الجزائر 2**

**Résumé :**

Comment peut-on lire un texte dans un domaine historique et interculturel, et comment peut-on envisager une lecture comparatiste dans un contexte colonialiste ?

L'objectif de cet article est de démontrer la spécificité de la méthode culturelle dans l'étude de deux textes du XX siècle appartenant au récit de voyage. Il s'agit d'Au *Maroc* de Pierre Loti et d'*ArrihlaAttatwigia* de ElghassalEttengioù on découvre deux visions narratives : une vision pleine d'hégémonie et d'orientalisme politique et une vision qui n'a pas pu dépasser la fascination et le choc de la modernité occidentale.

En bref, lire un texte dans un environnement de conflit ou de domination, est un acte de contextualisation ou d'historisation de pratiques imaginaires qui paralysent la communication entre Orient et Occident, et un acte de démythification de la grande narration colonialiste.

**مهاد نظري:**

يشكل التثاقف منحى جديدا في الدراسات الإنسانية المعاصرة. فبعدما كانت الغيرية قائمة على *براديغم* التفوقية والاستعلائية، حيث تجلت العديد من معطياته في الخطاب الاستشراقي المؤسسي الذي تبلور في كنف القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. راحت الغيرية الآن تدور في فلك ما يمكن أن يطلق عليه *براديغم*

الاعتراف؛ وهو بنية فكرية لاشعورية ترتكز أساسا على مبدإ طرد *الأنانة* لصالح مبدإ *الآخرية*.

إن الاعتراف يقوم على فكرة جوهرية مفادها أن الأنا المطلق يشكل وهما فلسفيا كما أن الآخر المطلق يشكل كذلك وهما أونطولوجيا (وجوديا). فالأنا تجدد هويتها المنفتحة في تفاعلها مع الآخر. بل يذهب البعض إلى أن تشكل الهوية الذاتية لا يتمفصل إلى في فضاء الآخرية؛ لهذا السبب انبرى الكثير من النقاد والفلاسفة المعاصرين للاشتغال على مجال تداولي جديد يرفض من جهة فكرة الهوية كحالة معطاة قبليا، كما حاولت البقية الأخرى تكثيف جهودها لنسف النزعة الفردية وتعويضها بغيرية تقوم على مبدإ إيتيقي (أخلاقي). نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر إيمانويل ليفيناس وجاك دريدا وبول ريكور وآكسيل هونيت (من رواد الجيل الثالث في مدرسة فرانكفورت) وإدوارد سعيد وهومي بابا وتزيفيطان تودوروف.

بدأت الآن الدراسات النقدية والمقارنة في العالم الغربي والعربي (وإن كانت في العالم العربي مازالت جنينية)السير في هذا الاتجاه. وتعد المجالات المقارنية ميدانا خصبا لتجريبها، لأن آلية المقارنة تقتضي ضمنيا تواجد طرفين فما أكثر. لهذا يصبح مجال التفاعل الثقافي بمثابة مركز جاذبية يفعّل بواسطة الانفتاح على الآخر دون نفيه وبواسطة الحوار الذي يعد آلية تواصلية مهمة في براديغم الاعتراف.

يقول تودوروف في كتابه **الحياة المشتركة:** "يتواجد في قاعدة كل حوار تعاقد من التبادلية: يشهد القول الذي أقوله لغيري على وجودي ووجود الآخر معا. إنه يقر بالانقطاعية وفي الوقت نفسه يقر كذلك بالتشابه في خطاباتنا. فلكي أسمع ما

يقوله لي لابد أن أصمت، كما أنه لا بد أن يقوم بالدور نفسه. إننا بصدد طقوس معقدة نتحكم فيها جميعا دون أن نفكر فيها"(1)

انطلاقا من هذا القول الذي يمكن أن يشكل النموذج المصغر لأخلاق الاعتراف نفهم بأنه كي يتسنى للمبدإ الحواري النجاح التام لابد من توفر عملية الإنصات للآخر؛ لهذا فكل محاولة تطرد صوت الآخر فهي سلب لحقوق المواطنة الإنسانية بصفة عامة.

السؤال الذي لا بد من طرحه حاليا، هل أصبحت أخلاق الاعتراف تشكل الآن وجودا حقيقيا أم هي مجرد تنظيرات قابعة في سطور الكتب ويحتفى بها في بعض الندوات البعيدة كل البعد عن الفاعلية السياسية؟ إن من يقرا المشهد السياسي العالمي سيكتشف للتو أن الممارسات عبر الثقافية Transculturelles لا يمكن أن تفسر خارج السياق الإمبريالي الذي فرض نمطه في الحوار فرضا إمبراطوريا شموليا. لهذا سنفهم السبب الذي جعل البعض (منهم هومي بابا) يعتقد بأن أهم طريقة في الحوار هي الكتابة المضادة القائمة على مبدإ التفاوض Négotiation بدل مبدإ التعارض Négation.

إن الوصول إلى مرحلة حاسمة من التاريخ تجعل الغرب ينزل إلى طاولة الحوار وفق مبدإ تبادلي واعترافي يعد في الوقت الحالي بمثابة بحث عن الغراب الأبيض ! لهذا، لابد من الاعتقاد بأن أحسن قراءة في الوقت الحالي للعلاقات التثاقفية بين الشمال والجنوب اللذين تحكمهما علاقات الهيمنة هي ما اقترحه الناقد الأمريكي من أصول فلسطينية إدوارد سعيد.

عندما نحاول القيام بتحليل نصين ينتميان إلى ثقافتين متباينتين يحكمهما شرط كولونيالي فإن القراءة كثيرا ما تقترح إيقاعين مختلفين في مقطوعة تاريخية واحدة. يسمي إدوارد سعيد هذه القراءة المشروطة بالتجربة التاريخية القراءة الطباقية. وهي طاقة تأويلية تحاول مليا تفسير الظاهرة الأدبية في كنف القوة/ الإمبراطورية. إن التواريخ ليست محايدة وليست ذات هويات صافية بل هي متواشجة ومتداخلة فيما بينها بحيث يصبح التهجين عنصرا لا مفر منه في فهم الظاهرة الجمالية عموما والأدبية خصوصا.

يبين الواقع التاريخي أن تَمَثُّلَ العالم في النصوص الأدبية لم يكن بمنأى عن القوة التي كانت بمثابة محفز إجرائي جمالي وأسلوبي في الوقت نفسه؛ فالتراكم النصي الذي عرفته المدونة السردية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في الغرب تماشى جنبا إلى جنب مع التطور البنوي للإمبريالية الغربية. على الرغم من أن القراءة الطباقية لا تطرد من حيزها النظري القراءات الجمالية الصرف القائمة على المقاربة النسقية والمحايثة والقراءات البرانية المتعكزة على جدلية العالم والنص وفق مقولة الطبقة أو رؤية العالم إلا أنها تعطي اعتبارا كبيرا لتواجد عنصر السيطرة والهيمنة في عملية التخييل الأدبي المتورط في العملية الاستعمارية. يقول إدوارد سعيد: "ترمي منهجيتي إلى التركيز قدر المستطاع على الأعمال الفردية؛ بقراءاتها أولا كإنتاج كبير من المخيلة الإبداعية أو النظرية، ثم أحاول أن أبين ما مدى مشاركتها في العلاقة المتواجدة بين الثقافة والإمبريالية. لا أعتقد أن الكتاب، ميكانيكيا، مشروطون بالإيديولوجية أو بالانتماء الطبقي أو التطور الاقتصادي، ولكن اعتقد أنهم منغرسون بعمق في تاريخ مجتمعاتهم، إنهم يحوّرون هذا التاريخ ويتقولبون به. كما يتقولبون براهنهم الاجتماعي في مستويات مختلفة. تنبثق الثقافة وأشكالها الجمالية من التجربة التاريخية، لهذا يعد هذا المصطلح (التجربة التاريخية) من المصطلحات المحورية في كتابي"(2)

سيكون مبدأ *التجربة التاريخية*، إذن، الذي يعد العمود الفقري للقراءة الطباقية بمثابة مقولة إجرائية تخول لنا فهم أسباب تعثر الحوار بين الغرب والشرق. لأن النصوص الغربية التي تطول الشرق لم تكن أولا بعيدة عن *السجل الاستشراقي* (المصطلح لإدوارد سعيد) وثانيا لم تتحيّد في علاقتها مع التجربة الاستعمارية، هذا من جهة، كما أن هذه المقولة ستساعدنا على فهم نصوص عربية طالت الغرب في سياق تاريخي مفرغ من القوة. فكانت إستراتيجيات التمثل Les stratégies de représentations مختلفة تماما.

سيكون الأساس الذي تنبني عليه دراستنا أن النصوص التي تتعضد بالقوة مختلفة في الأطر المرجعية واستراتيجيات تأويل الآخر في الوظائف والغايات عن النصوص التي تنطلق من لحن أضعف لأنها ما زالت ترزح تحت وطأة الكتابة المنبهرة.

**طباقية النصين: الموازاة والتقاطع.**

اختارت هذه الدراسة نصين من الرحلة السفارية؛ نص كتب في نهاية القرن التاسع عشر 1890 من طرف الرحالة الفرنسي المشهور بيير لوتي، ونص كتب في بداية القرن العشرين 1902 من طرف الكاتب المغربي الحسن بن محمد الغسال. يحمل النص الأول عنوان "في المغرب" Au Maroc ويحمل الثاني عنوانا باروكيا "الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية".

يرجع سبب اختيار النصين إلى عدة مقتضيات منها:

- إن تقارب الفترة الزمنية يعكس لا محالة الكيفية التي رأى بها كل واحد آخره. مهما يكن الاختلاف الحاصل من غايات الكتابة عند المؤلفيْن إلا أن النص الرحلي هنا رغم طابعه الدبلوماسي حاول تمثل الآخر معرفيا واجتماعيا.
- لا يمكن فهم نص "في المغرب" للوتي خارج المشروع الغرائبي Le projet exotique الكبير الذي حاول بلورته انطلاقا من نصوصه الأولى ورحلاته العظيمة إلى تركيا والسينيغال وآسيا. في حين لم يتعد نص "الرحلة التتويجية" للغسال الإعادة الديكورية المنبهرة بالآخر. إننا أمام نوعين من الغرائبية، هنالك غرائبية طبيعية تعيد إنتاج الخطاب الرومانسي السائد في القرن التاسع عشر وغرائبية حضارية لا تخرج عن صدمة الحداثة التي اعتقد المفكر والشاعر أدونيس أنها تجسدت كاملة في عمل الطهطاوي "تخليص الإبريز في أخبار باريز".
- من المصادفة أن يكون التقارب الجغرافي (ما دمنا في أدب جغرافي) متماشيا مع التقارب الزمني التاريخي. لقد لقيت طنجة حفاوة كبيرة لدى الكاتبين، لأنها شكلت تقاطعا هاما وكأنها تشكل فضاء ثالثا أو منطقة حرة.

**لوتي: آخر جماليات الخطاب الكولونيالي.**

لا يمثل بيير لوتي نشازا أو طفرة في الكتابة الرحلية الفرنسية. فهو سليل مدرسة تعود إلى بدايات القرن التاسع عشر دشنت مع شاتوبريان وجيرار دونرفال وغوستاف فلوبير. فقبل هذا الكاتب الذي تقبلته الأكاديمية الفرنسية على حساب زولا سجل عظيم من *الاستشراق الرمزي*.

ترجع قيمة لوتي الأدبية إلى أنه استطاع أن يشحن بطارية الغرائبية في فرنسا إلى أقصى درجات الشحن. ويرجع السبب، في اعتقادنا، إلى أن لوتي تسنت له فرصة السفر التي تعد عماد الغرائبي أكثر من أقرانه. فحينما نعود إلى مختصين في دونرفال أو فلوبير أو تويفيل غوتييه سنكتشف بسهولة إجماعهم حول الصعوبة المالية والسياسية التي اكتنفت سفريات هؤلاء الكتاب الكبار. في حين نجد المنصب الذي شغله بيير لوتي: ضابط في البحرية، منصبا مثاليا لكاتب مولع باكتشاف بقية أصقاع العالم لتمثلها كتابة.

لقد عاشت الكتابة الإبداعية في عصر لوتي، نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أزمة حادة. فالقرن التاسع عشر في فرنسا كان قرنا يضج بالكتاب الكبار الذين اكتسحوا الساحة فاستنفذوا كل المعاني وفنون القول، لهذا لم يكن أمام كاتب مبتدئ سوى البحث عن أمداء جغرافية موغلة في الغربة لكي يبتكر الجديد. لم يكن لوتي الوحيد الذي عانى من أصالة الكتابة في عالم مغلق من الإبداع، لقد شغل هذا الأمر واشتكى منه كثيرون نذكر من بينهم إتيين دينيي صاحب رائعة "خضرة، راقصة ولاد نايل" وأوجين فرومنتين صاحب كتابي "صيف في الصحراء" و"صيف في الساحل" ولوي برتران صاحب كتاب "سراب الشرق" وكتاب "دم الاعراق".

إن البحث عن الأصيل عند الأصلاني يعكس تماهيا للبنى (بتعبير لوسيان غولدمان) بين الخلفية الاستعمارية والخلفية الإبداعية، بين الأزمة الرأسمالية التي راحت تفكر في المستعمرات انطلاقا من الأزمة الاقتصادية البنوية التي مست السوق والأزمة الإبداعية التي راحت تفكر في جغرافيات نائية لتجاوز شح الموارد الجمالية في أوروبا وتأصيل نظام سيميولوجي جديد انطلاقا من فضاءات عذراء. في هذا السياق لا نجد إدوارد سعيد بعيدا عن الصواب حينما يربط بين الأدب

الاستشراقي والمؤسسة الاستعمارية والمفاهيم التفسيرية الجغرافية. فلوتي كفرد كان يمثل قلقا يصارع من أجل الأصالة التي تعد محورية في المعجم الرومانسي، وكرؤية للعالم (كانتماء) كان يمثل روحا مبثوثة في ثنايا الجماعة الاستعمارية التي تنطلق دائما من اعتبار الآخر موضوعا يمكن استغلاله سياسيا واقتصاديا وفنيا.

لم يحاول لوتي ولو مرة في كتابه حول المغرب تجاوز أو نقد البنية الاستشراقية المتواطئة مع الخلفيات الاستعمارية. لهذا سنجد بأن نصه من الناحية السردية قد انماز بثقل زمني جعل القارئ يشعر ببطء كبير في القراءة ويعيش نوعا من الانقباض مرات.

يعود سبب هذا الانقباض السردي إلى التوظيف المفرط لتقنية الوصف La description، التي تعد وسيلة ناجعة لنسف الزمن السردي. فحينما يرتفع الزمن ترتفع معه في كنف النص الحركية التي تشد القارئ وفق منطق صارم. على الرغم من أن التقنية الوصفية عند لوتي قد أخذت حصة الأسد من الرحلة، لأنها في الأصل كانت عبارة عن دفتر ملاحظات، إلا أنها تقنية وصفية متحجرة قريبة من كتابات الطبيعيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فلا نجد عند لوتي بتاتا مقطعا مشهديا يستثمر فيه ما يسميه آلان روب غرييه بالوصف الخلاق La description créatrice. وهو وصف يدعو القارئ إلى المشاركة في بناء موضوعه بواسطة لعبة البياض.

لا ننتظر من لوتي أن يستعمل هذا النوع من الوصف لأن هذه التقنية لم تتجاوز في كتاباته الخطاطة الاستعمارية. فإذا كان الوصف الخلاق يجعل الآخر الشرقي الأصلاني دائما في حالة من الغموض التي لا يستسيغها الخطاب الكولونيالي لاعتماده على مقولة الانفتاح التأويلي، فإن الوصف الكلاسيكي يحسم موضوعه

جيدا. فالغاية القصوى من كتابة الآخر عن لوتي هي *موضعة الأصلاني L'objectivation de l'autochtone*. لأن الموضعة في ماهيتها تفرغ الآخر من إنسانيته، كما تسهل عملية السيطرة عليه لأنه يصبح مسطحا ومختزلا.

لا تبتعد كثيرا إستراتيجية الموضعة هذه عن إستراتيجية الحيونة L'animalisation. لأن السبب من وراء إنتاج هذين *التشكلين الخطابيين* (المصطلح لفوكو) هو رفع التناقض السائد بين خطاب الأنوار الداعي إلى العقلانية الإنسانية وخطاب الاستعمار الداعي إلى النسبية العنصرية. لهذا فموضعة الآخر، كما نجدها عند لوتي عن طريق تقنية الوصف وحيونته كما نجدها في قصة ترازان او موغلي أو في صورة البري الطيب Le bon sauvage، تفرغ هذا الآخر من إنسانيته؛ وبطبيعة الحال تعالج إكلينيكيا الضمير الشقي الاستعماري إذا ما اعتقد بأنه يخترق قانون الإنسان الكوني.

دار موضوع الرحلة حول زيارة دبلوماسية قام بها الكاتب بيير لوتي صحبة وزير فرنسا في المغرب السيد باتونوتر Patenotre. أساس الرحلة دار حول تقديم وثائق للسلطان (الحسن الأول الذي حكم من 1873-1894) بمدينة فاس مع هدية تمثلت في مدفع كهربائي من آخر طراز طوله بقدر ستة أمتار. لم يتطرق لوتي لمحتوى الزيارة السياسي، لهذا نجده في المقدمة ينبه القارئ إلى أن هذا النص الرحلي لا يعكس مواقف سياسية أو انطباعات تاريخية.

دامت الرحلة قرابة أربعين يوما، إذ ابتدأت في يوم 26 مارس من سنة 1889 إلى غاية يوم 4 ماي 1889. قصر المدة يعكس نوع الرحلة السفارية التي تختلف مثلا عن الرحلات الاستطلاعية والإرسالية. كانت طنجة أول محطة مغربية

بالنسبة للرحالة، وفي اتجاهه إلى مدينة فاس مر بالعرايش والقصر الكبير وقبيلة بني مالك. بعد فاس اتجه مباشرة إلى مكناس التي كانت محطة الرجوع.

من الناحية الفنية لا نجد جديدا في هذا النص الرحلي، فهو يعد بمثابة وصف إغرائي يعتمد الغرائبية، يستهدف لا محالة متلقيا مثاليا هو القارئ الغربي. إذ يتجلى ذلك كثيرا في محاولات لوتي الدؤوبة لرسم مشاهد بيتورسكية بواسطة اللغة المباشرة البعيدة نوعا ما عن التكلف والباروكية.

أما من الناحية التاريخية فيعد هذا النص أصيلا لأنه من الكتب الأولى التي تطرقت لبلد كان مغلقا عن الأوروبيين نسبيا، ولأنه أول نص طال المدينة المحرمة فاس. فلوتي لم يكتف بزيارة أسواق وخطط هذه المدينة فقط بل راح يصف قصر السلطان الذي يعد مقدسا ومحرما على النصارى. لهذا أشار في العديد من المرات في نصه إلى أن الوزير باتونوتر تطهر عدة مرات قبل رؤية السلطان ودخول عرشه.

في الكثير من المقاطع النصية حكم لوتي على المغرب بأنه بلد الصمت، وانه بلد بري: "لقد توارت طنجة وراء كثبان صحراوية. بعد حين سنجد أنفسنا بمفردنا في إتباع الراية الحمراء الملكية. أقصد نحن الذين يتوجب علينا قضاء اثني عشرة يوما في هذه الرحلة لوحدنا في قلب بلد كبير صامت ومتوحش وفائض بالأنوار"(3)

لا يخرج لوتي هنا عن الإكليشيهات التي ترتكز أساسا في الخطاب الغربي الطائل للشرق على الكفاءة الإسقاطية. لم يحاول لوتي ان يفهم أو ينصت لهذا البلد، أو يتفهم فلسفة الصمت في وجدانه العميق، بل راح مباشرة يقارنه بأوروبا وببعض البلدان الشرقية التي زارها.

يصنف المؤرخ الفرنسي كلود ليوزو Claude Liauzu في كتابه *تاريخ النزعة المعادية للاستعمار في فرنسا* بيير لوتي المعروف بميله إلى الشرق وشغفه الهوسي بالترك ضمن الكتاب الذين مارسوا نقدا للاستعمار، فحسب رأيه يوحي كتاب Aziyadi بأن لوتي مرات يوحي بحبه العميق للإسلام إلى درجة الاعتقاد باعتناقه، كما يوحي مرات كتاب Le roman d'un spahi بمقت كبير للميتروبول التي أرسلت جيشها الشاب للانتحار في بلد الموت السنيغال.

ويعتقد هذا المؤرخ أن لوتي كان العدو اللدود لأصحاب الإيديولوجية الاستعمارية، ويقصد بذلك لا محالة التيار الكولونيالي الذي مثله أحسن تمثيل لوي برتران في عصر الجمهورية الثالثة: "لقد بنى منزله بروكفور، الذي يعد اليوم متحفا وملجأ للذكريات الغرائبية. وزيادة على استقباله كممثل للغرب المهيمن من طرف المعادين للاستعمار، فإنه العدو اللدود لمنظري الأدب الكولونيالي الذين يشددون على انتقاد ذوقه اتجاه المختلف"(4)

عندما يتعامل الباحث مع الظاهرة الاستعمارية من منطق تاريخي غير نقدي يقع بالضرورة في اختزال العالم الكولونيالي إلى فريق مؤيد وفريق معاد. لا بد أن نعتقد بان قراءة ليوزو للوتي قراءة مبتسرة واختزالية. فحينما نطبق مفاهيم البنية الإيديولوجية المتوارية خلف سجاف الخطاب الاستشراقي على لوتي تكتشف لا محالة بأن لوتي على الرغم من ميولاته الشرقية فإنه يكرس في المخيال الرمزي والجماعي للميتروبول إعادة إنتاج خطاب بتطابق تماما مع ما ترومه المؤسسة الاستعمارية.

أشار ليوزو إلى أن لوتي حامل لذوق مختلف، ويوحي بذلك أن لوتي من أنصار التعددية والاختلاف. لا نتسرع في الحكم على إنسانية شخص بمجرد أن يؤمن

بالاختلاف، فهنالك نوع من الاختلاف المتوحش أشار إليه تودوروف (في كتاب نحن والآخرون) أثناء مناقشته لكلود ليفي ستروس يعد مطية لخلق النسبية المطلقة التي ستتولد عنها العنصرية بالضرورة. فالزمن الذي بدأت تظهر فيه موجة الدعوة إلى التعددية والاختلاف هو الزمن نفسه الذي بدأ يبزغ فيه عصر العنصرية.

من جهة أخرى، لو غضضنا الطرف عن الوازع الإيروسي النسائي الذي جعل لوتي يهتم كثيرا بالشرق مثل فلوبير، والوازع الإيروسي المثلي الذي يقربه كثيرا من اندريه جيد في رحلته الشرقية. فإننا سنتساءل عن المسكوت عنه واللامفكر فيه في خطابات لوتي اتجاه الشرق. إن الشرق بالنسبة للوتي هو تنفيس عن المكبوتات في زمن تصاعدت فيه أحادية الإنسان المنمط بسبب التقنية والعلموية Le scientisme. إن القراءة اللذوية والإيدونية ستفتح الكثير من التأويلات الاستعمارية في فهم نصوص لوتي.

تحتاج الميتروبول إلى هذا النوع من النصوص لكي تحث الحواضريين على النزول إلى المستعمرات. لا يخفى أن توظيف الجنس في الأعمال السردية التي تتناول موضوعات المستعمرات تحفز كثيرا المؤسسة الاستعمارية. لوتي فهم جيدا اللعبة وعرف أن الجسد رأسمال ناجح وطريق سهل إلى الشهرة. حينما نقرأ روايته الزيادي التي تتحدث عن امرأة شرقية تركية نكتشف أنها استنساخ لكشك هانم التي تحدث عنها كثيرا فلوبير في رحلته المصرية، بل راح الأخوان غونكور يعتقدان أن الزيادي ما هو سوى شاب تعلق به لوتي إثناء زيارته لاسطنبول !

من جهة أخرى يعتقد أحد المختصين في تاريخ الاستعمار الفرنسي وهو السيد أوليفي لو كور غروميزان بأن لوتي انخرط في حركة استعمارية تشجع على اشتهاء جسد الشرقي بعدما أصبح الزهري يهدد في مواخير المستعمرات الجنود والسياح

والتجار. وما نصه *ثلاث نساء من القصبة* الذي كتبه سنة 1897 إلا تحذير ونزع لمرض الزهري الآتي من الميتروبول والبحارة.

" :هنالك مقطع رائع بسبب صوره وألفاظه المستعملة، يقتضي العديد من المعاني. كما أن لوتي وظف كثيرا المجاز المرسل بطريقة مزدوجة. لقد سمح له هذا الأسلوب وصف المدينة العربية بوصف رجالها ونسائها، مع التركيز على عادات نسوانها لكي يبين للقارئ الأماكن المتفردة في هذه القصبة، المعروفة بانفتاحها على كل الملذات. الجزائر؟ إنها مدينة أنثى استعمرت بالقوة والمال، ولكنها بقيت وفية للتطور الأخلاقي والنظافة. ليس من المدهش أن تكون كذلك هذه المدينة، حيث تنتشر الانحرافات والتجاوزات مرتعا للأمراض الجنسية. لأن انتشار الزهري عند الرجال الآتين من الميتروبول سيزيد الوضع خطورة"(5)

حينما نقرأ نص "في المغرب" نشعر بين الفينة والأخرى بتحسر وخيبة أمل. فالمغرب لا يشبه الشرق المنفتح الذي زاره كثيرا بيير لوتي. إن المغرب مازال، حسب تعبيراته، يعيش في القرون الوسطى. لهذا يصفه في كثير من المقاطع بالسكونية والصمت والشيخوخة. لا تعدو هذه الأحكام أن تكون عبارة عن قوالب جاهزة اعتمد فيها على الآلية الإسقاطية التي تعد محركا دلاليا محوريا في الكتابة الاستشراقية عموما.

لم يشعر لوتي بحرية تامة في رحلته إلى المغرب، فهنالك عدة ظروف قاهرة حالت بينه وبين كتابته المعهودة. لو نقارن هذا النص بالنصوص التي كتبت من قبل أو بالنصوص التي ستكتب من بعد سنجد أن لوتي لم يكن في المستوى الفني المطلوب، لقد اكتفى بأن يعيد في الكثير من المرات وقائع بطريقة تسجيلية أقرب إلى الواقع المنسوخ. مما جعل مقدم الكتاب يقول: "إن هذا الحكي الذي يعتبر ثانويا بالنسبة لمجموع أعمال لوتي لم يرق إلى مستوى Roman d'un spahi. في هذا النص

الذي يعد دفتر طريق نجد أن لوتي دون مستواه الشخصي. ولكن، رغم ذلك عدّ هذا العمل، إبان الفترة الاستعمارية، بمثابة الكتابة الحقيقية والأصيلة الأولى التي طالت المغرب في الأدب الفرنسي والتصوير الأكمل للمخزن قبل الاستعمار"(6)

عندما نتتبع المسار السردي في رحلة لوتي نلاحظ بأن الراوي بدأ يشعر بالراحة ابتداء من الصفحة 175؛ يرجع ذلك إلى أن هذه الصفحات خصصت للمرأة. فعلى غرار رحلة جيرار دونرفال إلى الشرق، نجد لوتي يتناص كثيرا مع الفصل الأول الذي خصصه دونرفال لنساء القاهرة. لم يستطع صاحب رحلة "في المغرب" أن يتطرق لجسد المرأة، ولكن راح يحكي عادات النساء في مدينة فاس حاكيا عن الطريقة الغريبة التي يتواصلن بها في مجتمع مغلق ومحافظ. إنها طريقة القفز على السطوح. فهذا العالم، عالم السطوح، يبقى بعيدا عن عالم الرجال بحيث تجد النسوة فيه حرية فضائية.

قبل أن يلتقى لوتي بوزير الحرب سي محمد بالعربي، تعرف على شاب من *الطلبة*، ما أدهشه في هذا الشاب هو خبرته العميقة بالنساء وعالم الحسيات على الرغم من أنه ينتمي إلى نظام تيولوجي محافظ وصارم. لقد روى له هذا الطالب الجانب المستور في مدينة فاس، خاصة الشفرات الجنسية التي كان يمر بها، فيتعجب منها ولكن لا يستطع فكها أسرارها.

بين له هذا الطالب بأن الرجل الذي يخرج من هندامه خبزا من الحلوى يعد بمثابة شفرة مخصصة للمطلقات في المدينة. فمدينة فاس، حسب لوتي، هي مدينة المطلقات لأنها مدينة تجارية. تعد بمثابة إقامة غير دائمة للكثير من التجار الذين يشتغلون على طريق السودان. يقول لوتي بهذا الصدد: "يبدو أن الطريقة المثلى التي لا يمكن صدها للحصول على امرأة مطلقة في هذا البلد أن يهدى لها خبز من

الحلوى (لا يمكنكم تصور مدى الشراهة التي تنتاب المغاربة والمغربيات حينما تكون القضية مسألة حلويات) إذن، حينما نلحظ مرور شخص غريب في بداية الليل يزحف مع الجدران ويستر في برنوسه خبزا من السكر، يتوجب علينا للتو أن نطعن مباشرة في صلاحية نواياه. من النظرة الأولى، من كان يعتقد أن مدينة من هذا النوع تخفي بين طياتها أمورا من هذا النوع غريبة ولطيفة"(7)

لم يترك لوتي فرصة في نصه إلا واغتنمها كي يشوه صورة المغرب لأنه لا يتطابق مع نزواته الشخصية ولا يشبه البلدان الشرقية التي زارها أيام شبابه. فهو يصف مرات فاس بالظلمة ومرات بالشيخوخة ومرات بالترهل ومرات باللاجدوى. عندما بدأ يكتب المقطع المهم في نصه، ذلك المقطع الذي يتمحور حول حضرة السلطان. لم يستسغ الطريقة التي يبجل بها هذا الملك ورفض أن يضيع الفرنسيون وقتهم في التعامل مع بلد قروسطي وسلطان يشبه المومياء !

: "أخيرا توقف بالقرب منا هذا الابن الأخير لمحمد (صلعم)، الذي اختلط دمه مع الزمن بالدم النوبي (السودانيين)... يمثل هذا الرجل الذي انتصب بالقرب منا للتو آخر أمير المؤمنين في دين وحضارة بصدد الاحتضار...لماذا نتعب أنفسنا فنرسل سفارة لملك كهذا؛ سيبقى مثل رعيته قابعا في أحلامه المهترئة التي تكاد تنتفي من الأرض... قدم الوزير (يعني السفير الفرنسي) للسلطان في محفظة من حرير مطرز بالذهب، رسائل المودة، حملها أحد صيادي الذباب (يقصد الخدم).... أدار الخدم السود سراج الحصان المحفوف بالحرير. تبدت لنا المومياء الشريفة (السلطان) من ظهرها وكأنها شبح عظيم..."(8)

يبدو أن السخرية شكلت حضورا قويا في الكثير من المنطوقات السردية داخل النص. ويرجع هذا إلى إستراتيجية تكاد تكون معروفة في الكتابة الاستشراقية التي

تخدم المؤسسات الاستعمارية. يمكن أن نطلق عليها مصطلح نزع الفوبيا من المستعمرات. والغرض منها إقناع الحواضريين بأن المستعمرات لا يوجد فيها الآن ما يخيف، لقد ولى واندثر عصر صلاح الدين. لقد تعمد لوتي بناء صورة تقوم على الشيخوخة والسكونية المطلقة والأحلام الخرافية، وتعمد وصف السلطان بسمات لها دلالة الموت مثل المومياء والشبح ووصف مدينة فاس بالظلمة وضيق الأماكن وتعفن الغيتو اليهودي لكي يخلق مخيالا يبدد الصورة المنمطة الموجودة في الميتروبول حول المملكة المغربية في ذلك الزمن.

لم يستطع ولم يحاول لوتي أن يكتب نصا يعكس صورة غير الصورة النمطية التي يحبذها الاستعمار الغربي عن الشرق عموما، بل لم يحاول أن يخرج عن النزعات المعادية للسامية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر بأوروبا لأنه خصص مقاطع كبيرة أثناء حديثة عن باب اليهود يعيد فيها رسم الصورة المنمطة لليهود: بيع الذهب، البشاعة، القذارة(9). ويرجع ذلك إلى الطابع السياسي غير المحايد الذي اكتنف الرحلة. لماذا اختار السفير الفرنسي لوتي بالذات؟ كما يرجع السبب إلى أن لوتي لم يجد في المغرب موضوعات غرائبية Exotique تعد سلعة ورأسمالا رمزيا جديدا يخول له سلطة وحظوة في عالم الإبداع الأدبي.

**رحلة الطنجي: بدايات تحسس الآخر.**

تعد رحلة الغسال بمثابة نص يشبه التقرير Le rapport، لم يكن الغرض الأساس من كتاب هذه الرحلة تبيين القدرات اللغوية التي يتمتع بها الكاتب كما لم يرم الكاتب نفسه البحث عن تموقع فني في ما يسمى بالمجموعة الأدبية.

كتب الغسال هذه الرحلة لكي تكون شهادة وتطبيعا للرحلات السفارية التي دأبت في الانتشار، في المغرب، ابتداء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بطلب من السلاطين الذين فهموا ضرورة معرفة هذا الآخر الممثل في بلدان تتصارع بالمناكب من أجل الحصول على شمال إفريقيا؛ نذكر من هذه البلدان بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا.

يقول الباحث عبد السلام حيمر في هذا السياق: "ولا شك في أن التقارير السفارية قد أفادت سلطان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمعلومات عن الأشياء الأوروبية، كان في أمس الحاجة للاطلاع عليها، ولاسيما أن القواعد الجارية المرعية كانت تلزمه بعدم الحلول "بدار الكفر" إلا مجاهدا. فلم يكن وصف تلك التقارير لمظاهر الحداثة الأوروبية "بريئا" محايدا، خاليا من الأغراض والمقاصد، بل كان منحازا وموجها، هادفا، يعتمد على منظور الفقيه المتصوف السني إلى العالم من جهة، وعلى حاجة المخزن ومصالحة من جهة أخرى. ومن هنا الاهتمام الكبير بوصف تقانة الحرب ومصادر تمويل الدولة الأوروبية الحديثة وبعض النظم السياسية كالبرلمان والحكومة. وفي كل الأحوال كان الوصف منبهرا، يستشف منه شعور أصحابه بالدونية والتأخر والخوف من هذا الآخر الذي أصبحت مراميه الاستعمارية لا تخفى على أحد"(10)

يعد محرك الخوف والتكالب الغربي على المستعمرات في القرن التاسع عشر بمثابة إطار تاريخي بارز لمقاربة رحلة الطنجي الموسومة ب: الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية. كتبت الرحلة في سنة 1902 في إطار رفقة دبلوماسية إلى لندن مع السفير الحاج عبد الرحمن بن عبد الصادق إبان حكم الملك مولاي عبد العزيز.

امتازت هذه الرحلة بقصرها مقارنة مع رحلة لوتي إلى المغرب، كما اختارت تقنية الحذف السردي في المفارقات الزمنية بقوة. ويرجع ذلك إلى قيامها على بنية التقرير الذي يرفع في كثير من الأحيان إلى السلطان أو القائمين على العرش لتحديد هوية الآخر دبلوماسيا واجتماعيا وثقافيا.

حينما نقارن هذه الرحلة برحلة الطهطاوي التي تتفق معها في الغاية وتختلف معها في النوايا (إننا نعرف أن الغرض من رحلة الطهطاوي في أيام محمد على باشا انحصر في معرفة أسباب الأخذ بالقوة في سياق تطبيع العلاقات الثقافية مع الآخر الاستعماري على الرغم من حملة نابليون) سنجد أن رحلة الطنجي تقلل من الاهتمام بالجانب الأدبي وبالتفصيلات التي نجدها في رحلة الطهطاوي. لقد حاول هذا الأخير مساءلة الأسباب التي جعلت الغرب (الإفرنج) يركب صهوة الحضارة في حين بقي الشرق في الحضيض. لهذا نجده يعرج على كتب روسو ومونتيسكيو في الكثير من الأحيان ليستلهم روح الأنوار. لا نجد كل هذا في رحلة الطنجي، لقد اكتفى الرجل بالحديث عن برانية الحضارة المتمثلة في المصانع ووسائل النقل واحترافية النظام السياسي في **لندرة** (لندن) مما جعل محقق الرحلة الأستاذ عبد الرحيم مودن يستعمل عبارة فضاء الفرجة.

حاول المحقق أن يبرر الوضع بعدد السنوات التي قضاها الطهطاوي في رحلته (خمس سنوات) وبالأشهر القليلة التي يقضيها الرحالة المغاربة في رحلاتهم السفارية: "ولا يقتصر الأمر على الإكراهات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي منعت من مسايرة خطاب الحداثة الصادر عن هؤلاء الرحالة، بل إن قصر المدة الزمنية لهذه الرحلات لم يسمح باستيعاب ذلك الشلال المتدافع من المخترعات والمستحدثات والانجازات، فالفرق على سبيل المثال شاسع بين رحلة الطهطاوي التي استمرت خمس سنوات وبين الرحلات المغربية التي لم تتعد أشهرا قلائل"(11)

لا يمكن الاعتماد على طول المدة الزمنية التي قضاها الرحالة كي نبرر القوة الفكرية والثقافية المتواجدة في النص الرحلي، فزيادة على الطابع الغائي من الرحلة: استكشافية وبعثية واثنوغرافية فإن هنالك عنصرا ثقافيا منغرسا في ثقافة الرحالة يجعلنا نعتقد بأن رحلة فلان أغنى من رحلة فلان.

إن ربط غنى الرحلة بالمدة الزمنية لا يفسر الطريقة الثرة التي يكتب بها الكثير من الرحالة الغربيين نصوصهم في سفريات لا تتجاوز المرات شهرين أو ثلاثة أشهر. لهذا لا بد من إدراج عنصر آخر مرتبط بمدى كفاءة الكاتب مع استقلاليته من الإكراهات ومدى تجذر البنية العقلية العميقة التي تحرك هذه الرحلات. فلوتي ودونرفال وفلوبير ينتمون إلى *سجل* حافل *بالأطر المرجعية* (إدوارد سعيد) التي تنتمي بدورها إلى إستراتيجية تنبع من القوة الإمبريالية.

ابتدأت رحلة العسال من طنجة عن طريق البابور (الباخرة) متجهة إلى جبل طارق حيث استقبل الوفد من طرف سفير المغرب هناك السيد عبد السلام بوزيان. بعد المرور بالبرتغال وبشكاية ومرسى بابليمس وهو من المراسي الأولى في كلاتيرة (إنغلترة). تم الوصول إلى لندرة (لندن) التي ستكون محطة الرجوع إلى طنجة عن طريق الربية (بلاد العرب) والونزة وجبل طارق.

عند وصول الوفد إلى لندن اتخذ طريق القصر الملكي بواسطة العربات وبابور البر (القطار). وهنا يبدا النص الرحلي بسرد العديد من الأشياء التي يعتبرها الراوي غريبة ومدهشة مرات، ومعقلنة ومنتظمة مرات أخرى. لم يكتف الغسال في نصه بوصف العتاد الحربي أو النظام العسكري في بلاد الإنغليز، بل راح يهتم

ببعض المشاهد التي تجعله يخرج نوعا ما من الدائرة الضيقة التي ترتهن بها الرحلات السفارية المغربية.

دأب هذا الرحالة المغربي منذ وصوله إلى لندن على تعزيز نصه بالحديث عن الطريقة الرائعة التي تنتظم بها طرقات وأحياء تعج بالمصانع وبالحديث عن الطيطر (السيرك) والمتحف الملكي وقصر البرلمان وآداب الملوك والعربات التي تسير بالكاز (الغاز) والكهرباء.

لا يخرج الطنجي في رحلته عن السياق العام للرحلات السفارية التي يحاول من خلالها الرحالة وضع نصب عينيه الطريقة المثلى التي تنتظم بها حياة الآخر. لهذا يغلف نصه مرات بخطاب معرفي يشرعن به نصه كي يقدم للسلطان في قالب هدية أو تقرير ما يجب أن يكون أو بالأحرى أن يكون، إذا استعملنا المعجم النقدي المستمد من نظريات التلقي فإن الرحلة تتدخل فيها إكراهات الكتابة التي تعد نتاجا لاستراتيجيات ثلاث: الكاتب النموذجي والنص والقارئ النموذجي؛ إذ عرفنا أنه في حالة الرحلة التتويجية يعد العرش الملكي هو القارئ النموذجي نفهم مباشرة المؤشرات الدلالية الداعمة للمنطوق والمؤشرات التداولية التي تكبل النص بالسكوت عن الكثير من الأشياء في حضرة الملك.

يقول الباحث شعيب حليفي: "تنبني الرحلة على تقديم معرفة متنوعة مباشرة من المعلومات الأدبية والتاريخية والجغرافية والإثنوغرافية. وغير مباشرة تتشكل من آراء ومواقف الراوي عن ذاته وعن الآخرين. ويكمن خطاب المعرفة ونوعيته فيما يقدمه الراوي عبر أوصافه وتعليقاته وتعبيراته، فخلالها تبرز "معرفة القيم" و"معرفة السائد" بأسلوب المقارنة والحوار والتركيب، فتتبأر معرفة الذات والآخر، فضلا عن معرفة موازية متحولة يساهم فيها أفق انتظار القارئ وثقافته، والعصر الذي

يتداول فيه النص. المعرفة في النص الرحلي تنبني على أسس وخلفيات الذاكرة والعين في مستوى أول، ثم القراءة والسماع في مستوى ثان. وبالتالي تصبح عبارة عن تلقيات وتقديمات ترتقها تحويلات وتفاعلات."(12)

لقد كانت لندن في القرن التاسع عشر مدينة صناعية بامتياز، ساهم النظام الرأسمالي كثيرا في رسم معالمها العمرانية والمجتمعية، لهذا لا يمكن لأي رحالة أن يمر بهذه المدينة الصناعية دون أن يولي اهتماما بالغا بمنشآتها القاعدية وبنيتها التحتية. لقد كرس الغسال في رحلته مقاطع جميلة لوصف هذه الهياكل التجارية الضخمة. يقول في هذا السياق: "وأعظم مكان في (الأندرة) هو مركز أشغال التجارة الكبرى وهو طريق عظيم به ديار ومخازن وحوانيت للسلع، ومن جملة ما بهذا المركز دار بنكة المخزن ودار حاكم البلد والدار البليسية وقريب منها دار ضرب السكة وبطرق هذا المحل من الازدحام وأصوات العجلات وما يحير العقل ويتعب النظر"(13)

لم يتوقف صاحب الرحلة التتويجية عند خطط المدينة بالكلام عن الشارع التجاري بل راح يكرس صفحة كاملة لوصف البرلمان، الذي يعد مشهدا من المشاهد الديمقراطية. ستشتغل هنا كذلك الكفاءة الإسقاطية بطريقة مضمرة بحيث تصبح قوة الوصف مرهونة بالعنصر المفقود في الثقافة المحلية للرحالة: "وفي الساعة الرابعة عشية يوم الجمعة ذهبنا للديوان الاجتماعي الرسمي المسمى بدار مجمع نواب الأمة على مصالح الرعية، يعني يحضر بها نائب عن كل إيالة أو عمالة وكيلا عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها، وهي دار كبيرة جدا متقنة البناء محكمة الصنعة مضى لبنائها الأخير عقب احتراقها نحو الخمسين سنة، واختطاط أساسها الأول ألف عام. ولا زال محل بها على الاختطاط الأول وقدر الأعيان الذين يجتمعون بها ما يقرب للسبع ماية (مئة) نفر، وبها عدة صور من بهر في السياسة من

الأقدمين من الرخام المتقن التمثيل كما هو مرسوم بها هيئة الحرب التي وقعت بينهم وبين بعض الدول سابقا"(14)

نلاحظ في هذا المقطع إرادة لفهم الآخر تاريخيا وسياسيا وفنيا، بل سيعرج الطنجي الغسال بُعَيْد هذا المقطع مباشرة في ذكر الطريقة التي ينافح بها كل نائب عن إيالته أو عمالته بواسطة الخطبة على رؤوس بقية النواب حاملا ورقة بيده. ولا يفتأ الغسال أن يذكرنا بمقام رئيس النواب الذي له قلنسوة بيضاء تجعله مختلفا عن بقية النواب ومحل مرتفع على هيئة المنبر يجلس عليه.

لم يتوقف الغسال عند هذا الحد، فانطلاقا من منطق الغرائبية راح يتحدث عن العربات بالكثير من التفصيل غير ناس للنظام الذي يحكمها وأنواعها والأخلاق المزعومة في ركوبها: "وهذه العجلات على أربع أنواع، الأول من النوع المعتاد الذي يجره الخيل، وهو أكثرها، والثاني الذي يسري بالقوة الكازية (الغازية) الثالث يسري بالقوة الكهربائية والرابع يسري بالقوة الكهربائية أيضا إلا أنه بواسطة اتصال قضيب من حديد منه يسير إلى الأسلاك الكهربائية الممتدة بالطرق(15)

لم ينس صاحب الرحلة الحديث عن المرافق الترفيهية قبل أن ينتقل إلى الحديث عن القصر الملكي. لقد شكل له الوعل (الكركدن) والسلحفاة المعمرة وحمار الوحش أشياء غريبة يبدو أنه رآها لأول مرة. لهذا راح يسبح الله أحسن الخالقين. ما نلاحظه أن معظم هذه الحيوانات من القارة الإفريقية أو من الهند، في العادة يعود بها سياح أو عساكر أو تجار انغليز من سفرياتهم إلى المستعمرات كما يبدو أنها هدايا قدمت للإمبراطورية من طرف المسؤولين الكبار من الأهالي في المستعمرات: "ومن أعجب ما رأينا من الحيوانات البرية الكركدان وهو على قدر

بقر الجاموس ولكنه ضخم الجثة كلها معمورة بغداد لحمية. وقد أخبرنا المكلف بهذه الحيوانات أن الرصاص لا يؤثر فيه إلا محل مخصوص بين أذنيه وله ثلاثة قرون.... ومن أغرب ما رأينا سلحفاة برية عظيمة الخلقة لها من العمر ماية سنة. ومن أعجب ما رأينا بالمحل المذكور نوع من البغال أصلها بلاد الحبشة فوق الحمار ودون البغال وهي مخططة كلها خط أبيض وأسود، وبه جملة من الأفاعي الضخمة التي تبتلع الجدي في لحظة"(16)

لم يتوان الرحالة بعد ذكر الطابع الغرائبي الذي عثر عليه في حديقة الحيوان ان يلتفت إلى السيرك المسمى عنده الطيطر. حيث راح يصف عجائب اللاعبين مع حركاتهم المذهلة. بل لم يخف الغسال إعجابه كذلك بالألعاب البهلوانية التي كان يقوم بها شباب من الجابون (اليابان)، ونعتها أنها ألعاب "تحير العقل وتتعب النظر"

عندما نتتبع المسار السردي للرحلة من حيث أدبيتها، فإننا نلاحظ بأن النص يستعين مرات بتقنية الوصف لرسم صورة لندن في كل أحوالها. ولكن لم نر تفجرا واستعمالا لهذه التقنية السردية مثلما رأيناها في وصفه للقصر الملكي، لقد استعان الغسال فيها بكلمات باروكية بعيدة نوعا ما عن الدارجة وكانه يعيد إنتاج البنى القابعة في أساليب القرون الوسطى: "...فإذا هو قصر كبير متسع جدا فائق الإتقان محكم الصنعة والتزويق مزخرف حيطانه بأنواع الذهب والفضة وجميع أبوابه منقوشة مزخرفة بالتذهيب والتفضيض وبه من الأثاث الظريفة والأواني النفيسة والفرش الحريرية والموبرية الملونة مع الزرابي التركية والهندية العريضة وأصناف الفخار الصينية العتيقة ما لا يوصف كثرة.... وقد وضع بواحدة منها كرسي الملك المرصع بالحجارة النفيسة من البرنيط أي الحجر الأسود النفيس الذي يعسر تقويمه..."(17)

لم تتجاوز هذه الرحلة وصف ما يمكن ان نطلق عليه برانية الآخر، فهي لم تتغلغل في أعماق فكر الآخر ولم تحاول أن تفهم عقله ولا أن تقترب من سيكولوجيته. لم يكن بإمكان الطنجي ولا غيره القيام بعملية استغراب Occidentalisme لأن خطابا من هذا النوع يمكنه التشكل في حالة واحدة فقط، هي حالة تصاعد القوة التي تشرطه وتدعمه.

حينما نقوم بمقارنة خارجية بين نص لوتي ونص الغسال نكتشف أن النص الأول يعد بمثابة غول سيميولوجي التهم آخره وحوله إلى عجينة يقولبها كما يشاء. في حين نجد أن نص الطنجي يعيش خارج التاريخ لأنه لا يصنعه ولا يساهم في العزف على أوتاره.

استطاع النص الاستشراقي أن يصبح ضمن الترسانة الاستعمارية لأنه دخل لعبة سرد الآخر من الباب الواسع. لقد رفع هذا النص شعار إن إرادة القوة مرهونة بإرادة السرد، لهذا ابتدأ مشروعا ضخما يرمي إلى سرد الآخر لتحويله إلى مخيال من جهة وللسيطرة عليه وإفراغه من إنسانيته من جهة أخرى.

للأسف العصر الذي عاش فيه الغسال لم يكن ليسمح بخلق مرويات مضادة بسبب غياب الوعي بثقافة المقاومة. كان الهم الأساس للكثير من الكتاب عن الآخر في عصر صاحب " الرحلة التتويجية" بداية التفكير في التماس بالآخر. ولغياب النزعة التوسعية في الثقافة العربية لم تستطع هذه التجارب الخروج من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التمأسس.

زيادة على هذا، يبقى الآخر الغربي الذي لم يبد أي استعداد كي يختزل في بنية واحدة بسبب تعدد أشكاله وتطور مقتضياته وفق مبدإ القطيعة، تحديا كبيرا للثقافة

العربية كي تطور أدواتها النقدية وتنعتق من خلفياتها القروسطية. يقول في هذا الصدد عبد الله العروي متحدثا عما يسميه *بالتباعد التاريخي*: "عندما يتصل مجتمع ما بآخر فإن التماس بمعناه المادي البسيط لا يهم في شيء إذ يحصل أن أحد المجتمعين المتماسين يرفض بكل بساطة أن يرى الآخر. المهم في مثل هذه الحال أن نحدد بالضبط ما يستطيع كل مجتمع أن يدرك من الآخر. عندما تعرف العرب على الغرب كان هذا الأخير قد قطع أشواطا كبيرة في معرفة ذاته، ومع ذلك اضطر العرب أن يبدؤوا من البداية. وكانت معرفة العرب للغرب تتسع وتتعمق بقدر ما كان المجتمع العربي يزداد تمايزا في مبناه الاجتماعي. هذا أمر بديهي وهو بالضبط ما لا يظهر في التحليلات الرائجة اليوم حول ما يسمى بالمثاقفة. تفترض هذه التحليلات خطأ أن المجتمعات شفافة سهلة الفهم والتأثر والتأثير"(18)

إن قراءة هذين النصين اللذين يجمعها التاريخ الإمبريالي قراءة طباقية يبين دائما تواجد نص أقوى من نص لأسباب مرتبطة بمبدإ القوة. ففي الوقت الذي تقوى فيه الغرب فراح يكتب آخره كي يتعرف عليه ويسيطر عليه راح العرب يفكرون في أسباب القوة ذاتها. فإن نتطرق لحالة اسمها الحيف السردي بين الغرب والعرب فإننا سنتحدث لا محالة عن حالة اسمها الحيف التاريخي الذي شكله الاستعمار. لقد استطاع لوتي أن يكمل صورة الشرقي في كنف خطاب تبلور مع نزعات توسعية في حين كانت صورة الغربي عند الطنجي باهتة خافتة لأن الدافعة التاريخية تكاد تكون معدومة.

## الهوامش:

(1)Tzvetan Todorov, **La vie commune, Essais d'anthropologie générale,** éd, Seuil, Paris, 1995, p146.

(2)Edward W Saïd, **Culture et Impérialisme,** tr par Paul Chemla, éd, Apic, Alger, 2010, p 25.

(3)Pierre Loti, **Au Maroc,** éd Dar Alaman, 2012, p27.

(4)Claude Liauzu, **Histoire de l'anticolonialisme en France,** éd, Pluriel, 2010, Paris , p 170.

(5)Olivier Le Cour Grandmaison, **Coloniser, Exterminer,** éd, Casbah, Alger, 2005, p75.

(6)Pierre Loti, **Au Maroc,** Introduction, p 5.

(7)Ibid,. p 189.

(8)Ibid., p154-158.

(9)Ibid., 235.

(10)عبد السلام حيمر، **صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا، ضمن كتاب جماعي: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه**. مركز دراسات الوحدة العربية، 2008، لبنان، ط2، ص 324.

(11)الحسين بن محمد الغسال: **الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية**، تق وتح عبد الرحيم مودن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، ص 26 من المقدمة.

(12)شعيب حليفي: **الرحلة في الأدب العربي**، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 272.

(13)**الرحلة التتويجية**: ص 45.

(14)نفسه: ص 53.

(15)نفسه: ص 46.

(16)نفسه: ص 48.

(17)نفسه: صص 54/ 55.

(18)عبد الله العروي: **الإيديولوجيا العربية المعاصرة**، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 2006، ص 61.